سلسلة

اللهم قوِّ إيماني

[١٠]

عبيد الدنيا

تأليف : د. على راشد

ريشة : أسامه أحمد نجيب

دار الفكر العربي

لمْ يكُنْ يدورُ فى الأذهان أنَّ أصدقاء المرحلة الثانويَّة بالأمس: سيلتقون معًا بعد مُضىِّ أكثر منْ عشرين سنةً على تفرُّقهم.

فريد عزّت، حافظ الدّيناري، جمال فارس، وأخيرًا فؤاد مُحرم..

كانوا أصدقاء داخل صفٍّ دراسىٍّ واحدٍ فى مدرسة الحسينيَّة الثانويَّة بحىِّ «العباسيَّة» المعْروف بمدينة القاهرة.

كلُّ واحدٍ منهُمْ كانتْ لهُ شخصيَّتُهُ وسماتُهُ الَّتى تختلفُ عنْ شخصيَّة وسمات الآخرين.

«فريد عزّت» شابٌّ قوىُّ البنْيَة، مفتولُ العضلات، عريضُ المنكبيْن، طويلُ القامة.. كانَ منْ أبرز الطُّلاب المشتركينَ فى رياضة «حمْل الأثقال»، ورياضة «المصارعة الحرَّة». وحصلَ على عدَّة مراكزَ أولى فى مُسابقات على مُستوى المدارس الثانويَّة بمدينة القاهرة.

وهُوَ شديدُ الإعْجاب بقوته وعضلاته، ويرتدى دائمًا الملابسَ الشبابيَّة الَّتى تُظهرُ فُتوتَهُ وقوَّتَهُ البدنيَّة، ولذا فهُوَ مُحبٌّ للشّجار، إلى درجة أنَّهُ أحيانًا يفتعلُ مُشاجرةً معَ آخرينَ دُونَ داعٍ، وذلكَ ليْسَ إلا ليُظهرَ للجميع قوَّتَهُ وبُطولتَهُ، لذا عُرف عنْهُ أنَّهُ «فتوَّة الشلَّة» وحاميها. وهُوَ مُحبٌّ لمُشاهدة الأفلام السّينمائيَّة الأجنبيَّة الَّتى يتميَّزُ أبطالُها بالقوَّة الجسمانيَّة الهائلة منْ أمْثال: فيكتُور ماتيور، وجُونى ويسملر، وستيف ريفز، فى أفلامهمُ البُطوليَّة الشهيرة مثل: المُصارعُونَ العُظماءُ، وطرزانُ يجدُ ابنًا، وهرقل.

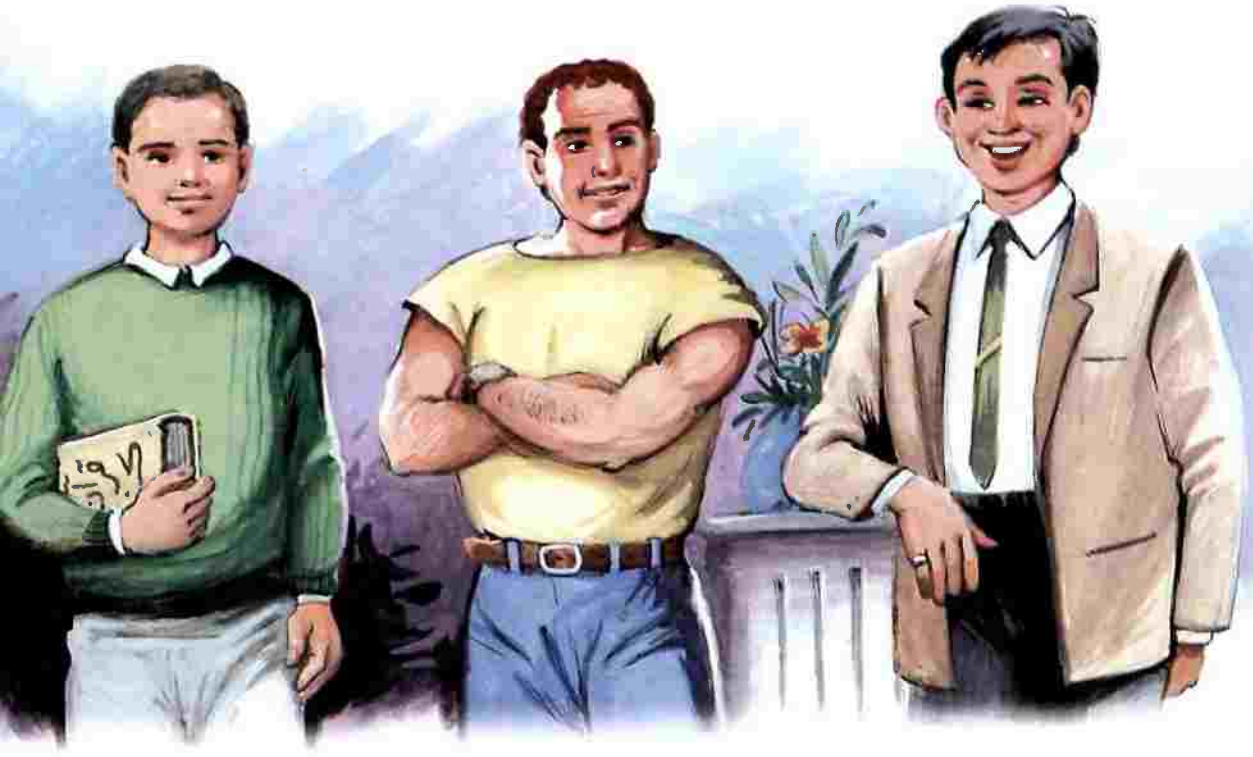

أمّا «حافظ الدّينارى» فهُوَ ابنُ الثّرىّ المعْرُوف «مَحمودُ الدّينارى» منْ رجال الأعْمال المشْهُورينَ فى عالَم البناءِ والمقاوَلات، ولَهُ عدّةُ شركاتٍ فى هَذا المجال، وجميعُها تحملُ اسمَ «شركةُ الدينارىّ للمقاوَلاتِ وأعمالِ البناء». ويَعيشُ حافظ مع إخوته وأبويْه عيشةَ لا تعْرفُ الحاجةَ أو العوز، فكلُّ ما يتمَنونَهُ وأكثرُ منْهُ مُتوافرٌ .. فالأموالُ طائلةٌ تلبّى كلَّ الطّلَبات وكافّةَ الاحتياجات، والشّابُ يُنفقُ علَى نفْسِه وعلَى أصْدقائه ببذخ إلى حدّ

«السفه»، لذا كانوا يُنادونه دائمًا بـ «البرنس» مُكافأةً له على كلّ ما يُنفقُه عليهم في كافّة الأوقات والمناسبات المختلفة.

ولمْ يُراعِ «البرنسُ» أبدًا قولَ اللّه تعالى: ﴿والّذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتُروا وكان بين ذلك قواما (٦٧)﴾ (الفرقان)، وأيضًا قولَه عزّ وجلّ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا (٢٩)﴾ (الإسراء).

بلْ كان من المبادئ التي يسيرُ عليها: مبدأ «الفلوسُ على كلّ شيء تدوس». ومبدأ «اصرفْ ما في الجيبْ يأتيك ما في الغيبْ».

أمّا الثّالثُ «جمال فارس» فهُوَ شابٌ وسيمُ الملامح، حلْو القسمات، ممشوقُ القامة، جاذبيّةُ ابتسامته فريدةٌ، نبراتُ صوته تأسرُ القلوبَ، وكلماتُه المعسولةُ تهزُّ الوجْدان. لديْه درجةٌ عاليةٌ في إقْناع الآخرين بوجْهة نظره، وسلامة منطقه، وحُسن تفكيره. ولكلّ هذه الميزات، كانتْ هُوايتُه الأساسيّةُ هيَ لفْتُ نظر الفتيات إليْه، وإيقاعهُنّ في غرامه، فغالبيّةُ هؤلاء الفتيات بمجرّد أنْ ينظرَ إليهنّ ويبْتسمَ ينجذبْنَ إليه. وكأنّ في عينيه قُوى مغناطيسيّةً، وفي ابْتسامته تأثيرًا لا يُقاوَمُ، وما هيَ سوى لحظات حتّى يقعْنَ في هواه، ويذبْنَ في حُبّه، ولا يستطعْنَ الانفلاتَ منْ هذا الهوَى وذاكَ الحبّ. وكثُرتْ فتياتُ الفتى الوسيم، وامتلأتْ مُفكّرةُ تليفوناته بأسمائهنّ، فلكلّ حرف منْ حُروف أوائل الأسماء صفحةٌ خاصّةٌ في تلكَ المُفكّرة، فصفْحةُ الألف مثلاً تتضمّنُ: آمال، أمل، أمنية، أنوار،

وصَفْحَةُ البَاءِ: بَدرية، بَسَنْت، بَهيَّة، بُوسى، وصفحةُ حَرف السين: سُعاد، سلْوى، سالى، سُهَى، سُلْوان، وصفحةُ حَرفِ النُّون: نُورا، نِعمَة، نَبيلة، نَوال، نانى.. وهكذا.

ورغمَ أنَّ جَمَال لَهُ شَقيقَاتٌ فِى دَوْرِ المُراهَقَةِ؛ إلا أنَّهُ يُحاسبُهُنَّ حسابًا عسيرًا فى كُلّ تَصَرُّفَاتِهِنَّ، عِندمَا يَذْهَبْنَ إلَى المدْرَسَةِ أَو يَعُدْنَ مِنْهَا، وَالتدقيقُ فى الزَّمن الَّذى يقْضينَهُ خَارِجَ المنْزِلِ، سَواءٌ الَّذِى يَتمُّ فِيهِ شِرَاءُ بَعْضِ الاحتِياجَاتِ الأُسرِيَّة، أمْ فى زِيارة بعْض

الأقارب والصديقات. فكان يرتضى لنفسه إيقاع بنات الناس فى شباكه ويحرص على سلوكيات وتصرفات شقيقاته حتى لا يقعن فى الاعيب شاب مثله. ولم ينتبه للقاعدة العادلة التى تقول: «كما تدين تدان».

أما الصديق الرابع من «الشلة» فهو فؤاد محرم، شاب من أسرة متوسطة الحال تتميز بالتدين، حرص والده أن ينشأ ابنه «فؤاد» منذ صغره على الفضائل الدينية وتأدية الواجبات العقائدية الإسلامية، فعلمه الصلاة والصيام وحفظ العديد منع سور القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وكان هذا الوالد المؤمن مثالا حيا وقدوة صالحة لابنه فى عباداته وتعاملاته، فيراه ابنه أنه يتعامل مع جيرانه وكأنهم من الأهل والأقارب، ويراه فى المواقف الشديدة منضبطا متماسكا غير منفعل منفذا لوصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم عندما سأله أحد الصحابة أن يعظه، فقالها عليه الصلاة والسلام ثلاثا: «لا تغضب»، «لا تغضب»،

«لا تغضب». كما لاحظ «فؤاد» على أبيه فى مواقف الخصومة: التسامح، يعفو عمن ظلمه، كما يجده حريصا كل الحرص على صلة الرحم، فهو يتواصل - بالزيارات والسؤال عن الأحوال بالهاتف - مع أهله وأقاربه دائما، وخاصة فى الأعياد والمناسبات المختلفة. فتشرب «فؤاد» كل هذه القيم والتوجهات الإسلامية من والده ومن بقية أسرته.

هؤلاء هم أصدقاء المرحلة الثانوية بالأمس، وقد قدر لهم أن يلتقوا بعد مضى أكثر من عشرين سنة من تفرقهم بعد المرحلة الثانوية، وكان سبب لقائهم هذا أن كلا من فريد عزت، وحافظ الدينارى، وجمال فارس، قرأوا فى جريدة يومية نعى والد صديقهم السابق «فؤاد» المرحوم بإذن الله تعالى «محرم سليم»، فذهبوا هم الثلاثة على غير ميعاد لتقديم واجب العزاء لصديقهم. وكم كانت مفاجأة لكل منهم أن يلتقوا معا بعد مرور كل هذه السنوات الطويلة. وتبادلوا أرقام الهواتف وعناوين المنازل، وتم التنسيق بينهم أن يلتقوا بدعوة على العشاء من «البرنس حافظ»، وذلك فى إحدى القاعات الفاخرة بفندق «خمس نجوم» يقع على ضفاف النيل الخالد.

وبالفعل التقى الأصدقاء فى المكان المحدد والزمن المتفق عليه، وكانت سهرة رائعة جمعت أصدقاء الأمس. وبعد أن رحب بهم «البرنس» وفى أثناء تناولهم للعشاء وجه حافظ حديثه لصديقه فريد عزت عن أحواله طوال السنوات السابقة، فأجاب فريد وشريط الذكريات يمر أمام عينيه:

- بعد نجاحى فى الثانوية العامة، التحقت بكلية التربية الرياضية بالهرم، وحصلت بعد أربع سنوات على البكالوريوس الذى أهلنى للعمل كمدرب للمصارعة الحرة فى أحد الأندية الرياضية المشهورة، وتزوجت من إحدى قريباتى وأنجبت ولدا «فهد» وبنتا «ريم».

وسأله فؤاد مازحا:

- أما زلت يا فريد محبا للشجار، وتفتعله لتبين قوتك للآخرين؟

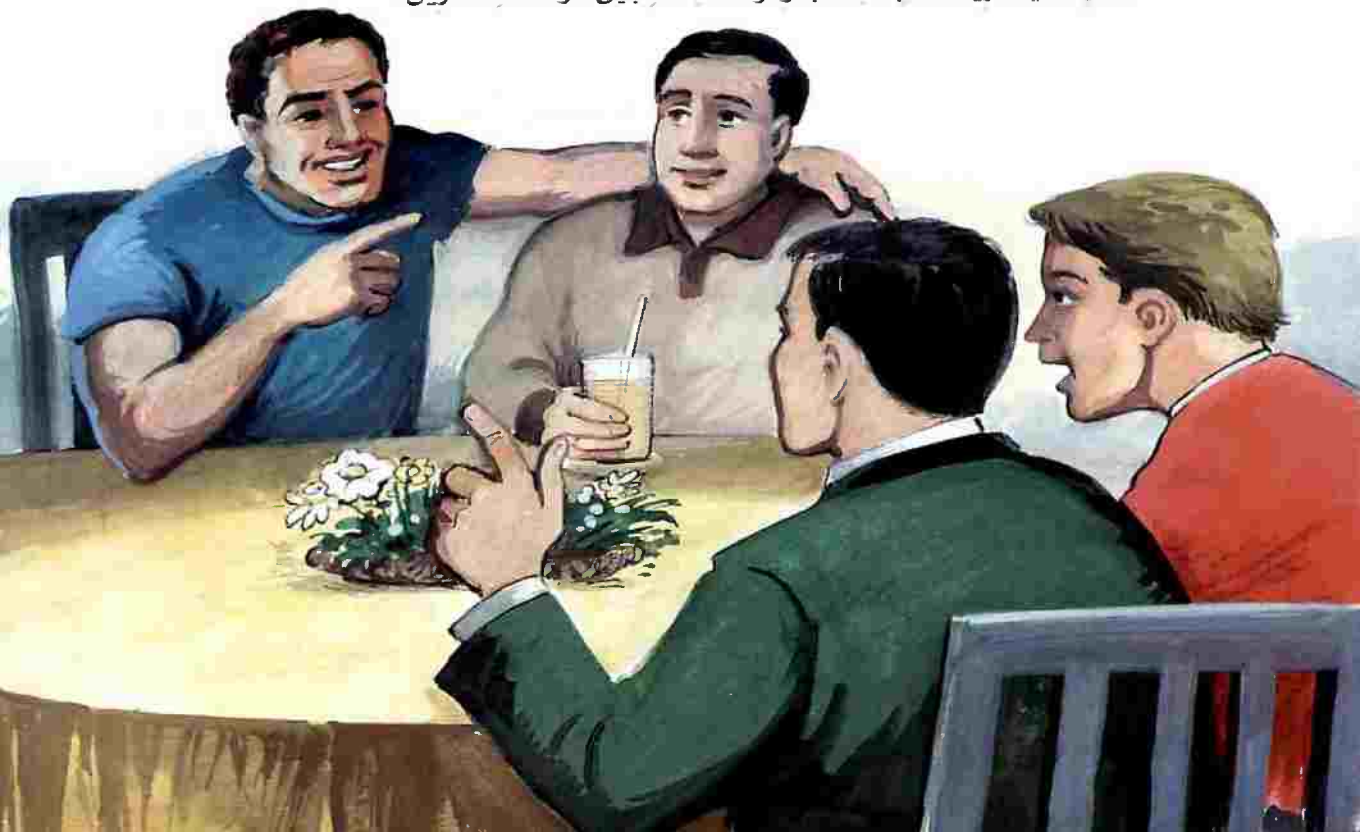

وردّ فريد ضاحكًا على هذا التساؤل:

- نعمْ إلى حدٍّ ما فإنهُ «منْ شبَّ على شيءٍ شاب عليه». وخاصةً أننا في زمن القوىُ فيه هو الذى يسودُ وتسمعْ وتلبَّى أوامرُهُ. انظرْ لدول العالم الآن. الدولةُ الكبرى هى الدولةُ القويةُ التى يخشاها ويرهبُها الجميعْ.

وضحك الأصدقاءُ على رأى ووجهة نظر «فريد عزّت» عن القوّة التى لمْ تتغيَّرْ منذُ صباهُ.

وهُنا وجّه حافظٌ الحديث والتساؤل ناحيةَ صديقه جمالْ فارس عنْ أحواله، وهلْ ما زال «فتى أحلام» العذارى الفاتنات. فضحكَ جمالْ قائلاً:

- لقدْ ذكَّرتنى بالذى مضى يا «برنس» فعندما كُنتُ طالبًا بكليَّة الآداب كانتْ لى مملكةٌ خاصةٌ بى تضمُهُ تحتَ إمرتى فيها عشراتِ الفتيات.

وقاطعهُ فؤادْ ضاحكًا:

- أظنُّ يا عزيزى أنكَ اخترتَ أجملهُنَّ وتزوَّجتَها؟

وبنفْس الابتسامة العذْبة صاحَ جمال:

- أبدًا يا صديقى، فغالبًا ما «تأتى الرياحُ بما لا تشتهى السُفنْ». فبعْد أنْ تخرَّجتُ منْ كُليَّتى وتمَّ تعْيينى فى وزارة الثقافة، فإذا بابْنة المدير العامّ الذى أعملُ فى مكتبه تهْوانى وتُطاردُنى فى كلّ مكان: فى العمَل، والبيْت، والنادى، فاضْطررتُ إلى مُجاراتها منْ

أجل مركز والدها، الذى علم بهذه المجاراة وشجع هذه العلاقة التى انتهت رغم أنفى بالخطوبة والزواج، وأنجبت منها ابنتى الوحيدة (دنيا) وهى الآن طالبة فى المرحلة الثانوية. فهل تتصورون يا أصدقائى أنا جمال فارس الذى كانت لى علاقات بفتيات درجة جمالهن وفتنتهن فى سوق الجمال «عشرة على عشرة»، أتزوج من فتاة درجتها فى سوق الجمال «ثلاثة على عشرة».

فقاطعه فؤاد ضاحكا:

- لا يقع إلا الشاطر كما يقولون، وانك تستحق هذا المصير يا جمال، فقد تسببت فى لوعة عشرات الفتيات وحطمت قلوبهن.

فضحك جمال قائلا:

- هذا خارج عن إرادتى يا عزيزى، فأنا أعشق جمال النساء، بل إنى أعبده عبادة.

ردّ فؤاد:

أستغفرُ اللّه العظيم .. لا يا صديقى العبادةُ فقطْ للّه الواحد القهّار، وليس لأىّ شىْء بعْدهُ عزّ وجلّ.

وهُنا الْتفت فريد عزّت إلى صديقه حافظ قائلا:

- وأنْت يا «برنس» ماذا عنْ أحْوالك؟

فاعتدل حافظُ الدّينارىُّ فى جلْسته، وقالَ بشىْءٍ من الفخْر:

- لقدْ وَرثْتُ عنْ أبى يرحمُهُ اللّهُ عدّةَ شركاتٍ فى مجال البناء والمقاولات، وجميعُها شركاتٌ ناجحةٌ، ومُنذْ فترةٍ وجيزةٍ تمّ التّعاقدُ بيْنى وبيْنَ شركةِ مُقاولاتٍ عالميّةٍ برأس مالٍ خمسُمائةِ مليونِ دُولار، ويُنتظرُ أنْ يكونَ مكسبُها حوالىْ مائةِ مليونِ دُولارٍ كلّ سنةٍ، أىْ بعْدَ خمسِ سنواتٍ يُسدّدُ للشُّركاءِ كلّ ما دفعُوهُ. وساهمْتُ فى هذهِ الشّركةِ بنسْبةِ ٥٠٪ منْ رأسِ مالِها.

فقال فريدٌ: منذ أن عرفناك في الثانوي يا برنس وأنت من أصحاب الملايين، وكنت دائمًا تتفضل علينا بخيرك الكثير وكرمك الوفير، وحتى الآن.

وأكمل فؤادٌ: أرجو ألا تنس زكاة المال والتصدق على الفقراء يا حافظ بيه.

ردَّ حافظٌ في عبوس: في الحقيقة يا فؤادُ أكثرُ ما يثيرُ أعصابي هؤلاء الكسالى الذين يدَّعون الفقر ويتسولون من الذين يكسبون المال بعرقهم وكدهم.

فاعترضَ فؤادٌ قائلا:

- لكنْ يا حافظُ بيه المالُ مالُ اللهِ، والزكاةُ ركنٌ من أركانِ الإسلامِ، وقدْ ذكرَ في القرآنِ الكريمِ في عدةِ سورٍ قولُهُ تعالى: ﴿... الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ... (٥٥)﴾ (المائدة)، وأيضًا قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿والذين في أموالهم حقٌ معلومٌ (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥)﴾ (المعارج).

فردَّ حافظ في ضيق:

- ولكنَّ كثيرين من هؤلاء يحتالون على الأغنياءِ بدعوى الفقرِ والحاجةِ،

وعلى كلّ حال فأنا أدفعُ الضرائبَ للحكومة، وهى المسئولةُ عنْ سدّ حاجاتِ الفقراء. ولندعْ هذا الحديث، وماذا عنْك أنتَ يا فؤاد؟

ردّ فؤادٌ فى هدوئه المعهود: - لقدْ تخرّجتُ منْ كليّة الزراعة، وتمّ تعييننى مهندسًا زراعيًا فى إحدى دوائر وزارة الزراعة، وتزوّجتُ ورزقنى اللهُ بولديْن: محمّدٌ وأيمنْ، وبنتٍ واحدةٍ سمّيتُها فاطمةَ الزهراء.

وسعدَ الأصدقاءُ الأربعةُ بعودةِ علاقاتهمْ معَ بعضهمُ البعض، واتفقوا على لقاءاتٍ دوريّةٍ بينهمْ، وذلكَ بينَ الحينِ والآخر.

ومرّ أكثرُ منْ ثلاثةِ أعوامٍ على لقائهمُ الأوّل، التقوْا فيها مرّاتٍ قليلة. وفى أحدِ الأيّام عرفَ «فؤادٌ» أنّ صديقهُ «فريد عزّت» أُصيبَ بمرضٍ شديدٍ منذُ عدّةِ أسابيع. وهو يُعالجُ فى إحدى المستشفياتِ فى قسمِ الأمراضِ الباطنيّة.

وذهبَ فؤادٌ ليزورَ صديقهُ فى تلكَ المستشفى، وعندما سألَ إحدى ممرّضاتِ قسمِ الأمراضِ الباطنيّةِ عنْ غرفةِ المريضِ «فريد عزّت»، أخبرتهُ الممرّضةُ أنها الغرفةُ رقم (١٥)، ودخلَ فؤادٌ هذهِ الغرفةَ، فوجدَ أنّ المريضَ الذى يرقدُ على السريرِ ليسَ هوَ صديقهُ فريد، بلْ شخصٌ آخرُ ضعيفٌ جدا وهزيلٌ للغاية، فرجعَ إلى نفسِ الممرّضةِ وقالَ لها إنّ المريضَ الموجودَ فى الغرفةِ (١٥) ليسَ هوَ صديقهُ فريد عزّت. فاستنكرتِ الممرّضةُ ذلك، وأكدتْ أنهُ هوَ، وذهبتْ معهُ إلى نفسِ الغرفةِ وقالتْ: - هذا هوَ المريضُ فريد عزّت يا فندم.

فقال لها فؤادٌ: صديقى يا آنسةُ الذى جئتُ لأزورهُ مُختلفٌ تمامًا عنْ هذا الهزيل الذى يكادُ أنْ يكون هيكلا عظميًا.

وأذهلت المفاجأةُ فؤادٌ عندما سمع هذا المريض الهزيل، وهو يقولُ لهُ فى ضعفٍ شديدٍ: أهلاً يا فؤاد..

وتأمّل فؤادٌ بتركيزٍ شديدٍ فى هذا المريض الذى يرحّبُ به، فاستطاع بعد هذا التأمُّل أنْ يتبيّن الحقيقة. إنهُ هو صديقهُ فريدٌ ولكنْ على شكلِ هيكلٍ عظمىٍّ مكسُوٍّ ببعضِ الجلدِ الأسمرِ الباهت.

وتأثّر فؤادٌ جدا لحالة صديقه فريد الذى كانَ يملأ الدُّنيا قوّةً وفتوّةً وصحةً، والذى كانَ يفتعلُ المشاجراتِ مع الآخرينَ ليؤكّدَ على هذه القوّةِ وتلكَ الفتوّة. وتخيّلَ فؤادٌ لو أنَّ طفلاً فى الخامسةِ منْ عمْرهِ ولطمَ المريضَ علَى وَجْههِ، فإنهُ لنْ يستطيعَ أنْ يُدافعَ عنْ نفسهِ، أو يردَّ للطفلِ لطمتَهُ، وتمتمَ فؤادٌ فى سرِّهِ:

- سبحانك يا الله يا قوىّ يا متين، ابتليته بنعمة الصحة والقوة لترى أيشكرُ ويستخدمُ هذه النعمة فى الخير، أمْ يكفرُ ويستخدمُها فى الشر. وها هى الصحة والقوة قد زالتا عنه، وبقى عمله الذى سيحاسبُ عليه يوم القيامة.

وعندما سأل فؤادُ الممرضة عنْ حالة فريد الصحيَّة ونسبة الأمل فى علاجه، أخبرته الممرضة بأنها حالة ميئوس منها تماما، وإلى الآن لمْ يستطعْ طبيبٌ تشخيص نوع مرضه، هذا المرضُ الذى تسبَّب فى نقصان وزنه فى فترة أقلّ منْ شهرين حوالىْ ستين كيلو جراما، وهو الآن لا يتغذى إلا على المحاليل التى تُدفعُ فى دمه مباشرا.

وترك فؤادُ المستشفى وهو فى ذهول وحزن على صديقه، وأخذ يدعو له بالشفاء، ويدعو لنفسه أيضا مرددا:

«اللهمَّ أنت الرزاقُ ذو القوةِ المتين، اللهمَّ لا تحرمنى منْ صحتى ولا قوتى ما حييتْ واجعلها الوارثَ منى يا أكرمَ الأكرمين ويا أرحمَ الراحمين».

ولمْ تمضِ سوى أيام قليلة حتى رحلَ فريد عزتْ عن الدنيا، وفى جنازته سار المشيعون خلفَ النعشِ فى حزنٍ وصمتٍ ووقارٍ منْ هيبة الموت، وكان فى المقدمة فؤاد محرم صديقُ المتوفى يحاولُ بينَ الحينِ والآخرِ المشاركةَ فى حملِ النعش لما فى ذلك منْ ثوابٍ كبيرٍ.

وانتهتْ مراسمُ الدفْنِ وسلّمَ المشيّعُونَ على أهْلِ المتوفَّى مُواساةً لهُمْ. ثُمَّ انْطلقَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلى شأنِه. وفى هذه اللّحظةِ شاهدَ فُؤادٌ صديقَهُ حافظَ الدّينارىَ. وهُو يُقدّمُ تعازيهُ لأهْلِ صديقِه فريدٍ، فاخترقَ فُؤادُ الصُّفُوفَ ووَصلَ إلى حافظٍ وشدَّ على يدِهِ مُصافحًا وقالَ لهُ ما يُقالُ فى هذهِ المُناسبَاتِ:

- البقاءُ للّه.

- سُبْحانَ منْ لهُ البقاء .. قالَها حافظٌ فى أسًى وحُزْنٍ.

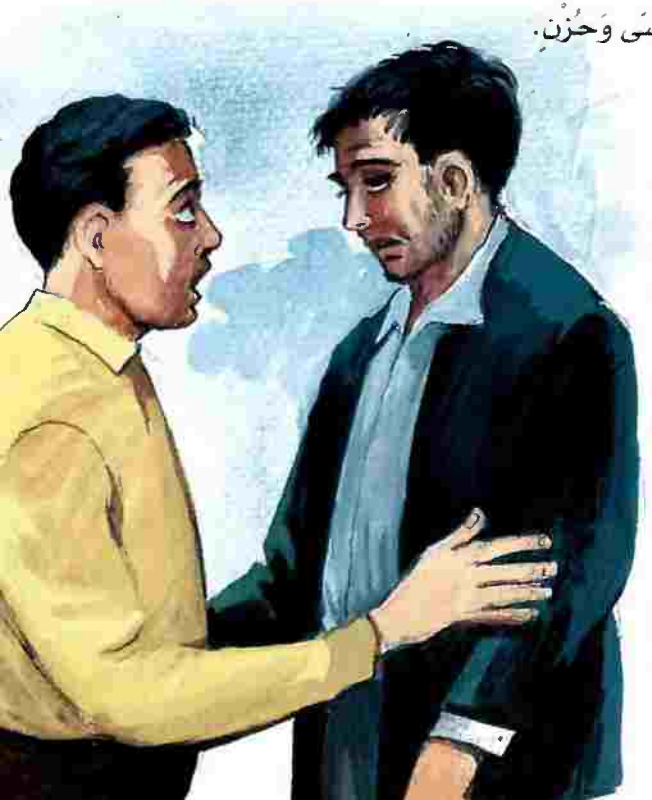

وذُهلَ فُؤادٌ منْ منْظرِ حافظٍ وهُوَ يُصافحُهُ، لقدْ تغيَّرَ حالُهُ تمامًا، فها هُوَ يرْتدى ملابسَ غيرَ لائقةٍ، وترَكَ ذقْنَهُ دُونَ حلاقةٍ لعدَّةِ أيّامٍ، وشعْرُ رأسِهِ بدَا «منكُوشًا»، وبرزَتْ وجْنتَاهُ وغارَتْ عيْنَاهُ فى وجْهِهِ وأصْبحَتْ نظراتُهُ زائغةً.

وظنَّ فُؤادٌ أنَّ ذلكَ بسببِ حُزنِهِ علَى صَديقِهِ فَريدٍ، لكنَّ الحَقيقةَ الَّتى عَرفَها منهُ غيرُ ذلكَ تمامًا.

خَسرَ حافظُ الدّينارىُّ كُلَّ ثروتِهِ بسببِ الشَّركةِ العالَميَّةِ للمُقاوَلاتِ الَّتى ساهَمَ فيها

بنسبة ٥٠٪ من رأس المال. فلم يكن أصحاب هذه الشركة العالمية سوى عصابة عالمية احتالت عليه بأسلوب نصب محبوك. وقد اقترض حافظ من بعض البنوك قروضا مالية ضخمة تتناسب مع أنه سيكون شريكا عالميا، وضاعت ثروة الرجل. ولم تف ممتلكاته (فيلا - عمارة - سيارات فاخرة - قطعة أرض بوسط القاهرة) لسداد قروض البنوك، وأصبح مهددا بالسجن. لأن القاعدة القانونية فى حالته هذه: (يا الدفع يا الحبس).

وعندما استفسر فؤاد من حافظ عما ينويه أن يفعله قال والحيرة والأسى والحسرة تلف حديثه:

- أحاول الاتصال بشركاء قدامى لسداد جزء من القروض وأبدأ مشوارى من الصفر، وإذا لم أنجح فى ذلك فليس لى سوى حل واحد وهو الهروب خارج البلد حتى لا أجد نفسى خلف القضبان.

وترك حافظ صديقه فؤاد، ونادى ليوقف سيارة أجرة يستقلها، وتسمر فؤاد فى مكانه. أهذا هو «البرنس حافظ الدينارى» صاحب الملايين، والذى كان يتباهى بثروته وأمواله الطائلة التى لا تنضب مصادرها، وقال فى نفسه:

- سبحانك يا ربى تعز من تشاء وتذل من تشاء، لقد ابتليت يا ربى حافظا بنعمة المال لترى أيشكرك وينفق المال كما أمرته، أم يكفرك وينفقه فى غير مرضاتك. وها هو المال قد ذهب وزال، ولم يبق سوى عمله الذى سيحاسب عليه.

وأخذ فؤادٌ يدعو ربَّه: «اللهمَّ إنى أعوذُ بك من شرِّ فتنةِ الغنى ومن شرِّ فتنةِ الفقرِ، وأعوذُ بك من الهمِّ والحزنِ، وأعوذُ بك من العجزِ والكسلِ، وأعوذُ بك من غلبةِ الدَّيْنِ وقهرِ الرِّجالِ، يا ربَّ العالمين ويا أرحمَ الراحمين».

ومرَّت الشُّهورُ، وسافر فؤادٌ إلى مدينةِ الإسكندريَّةِ بمُفرده فى مُهمَّةٍ خاصَّةٍ بعَمَلِه، وبعْد أنْ انتهى من مُهمَّتِه، سار ليلًا يتنزَّهُ فى ميدانِ «محطَّةِ الرَّمْلِ» الشَّهيرِ بمدينةِ الإسكندريَّةِ، وإذا به يلْتقى بصديقِه «جمال فارس»، وكانتْ مُفاجأةً سارَّةً للصَّديقيْن فأخذا يتحدَّثان عنْ أحْوالِهما وعنْ رحيلِ صديقِهما فريد عزَّتْ، والأزماتِ الماليَّةِ التى ألمَّتْ بصديقِهما حافظ الدِّينارى. وعندما علِمَ جمالٌ بأنَّ فؤادًا فى مُهمَّةِ عملٍ تمَّ الانتهاءُ منْها، صمَّمَ أنْ يدْعُوهُ لقضاءِ سهْرةٍ فى أحدِ الـ «كازينوهات» اللَّيليَّةِ لأنَّهُ هُو أيْضًا بمُفردِه

فى مدينة الإسكندرية. وحاول فؤاد أن يعتذر عن هذه السهرة لما فيها من رقص وغناء من فتيات ونساء خليعات يظهرن مفاتنهن للزبائن وما سيكتسب من آثام وذنوب من تلك المشاهدات المحرمة. إلا أن صديقه جمال أصر على دعوته وقال له وهو يضحك:

- عندما تظهر هؤلاء الجميلات الفاتنات أغلق عينيك ودعنى أنا أنظر إليهن وأطيل النظر فى هذا الجمال الساحر.

وفى نهاية تلك الليلة اتصل فؤاد محرم هاتفيًا من الإسكندرية بأسرة صديقه جمال فارس فى القاهرة لينعى إليهم وفاته، وصرخت ابنته «دنيا» من هول الخبر المفجع، واستفسرت: كيف حدث هذا. فأخبرها فؤاد فى تأثر بأن سكتة قلبية فاجأته ولم يفلح معها إسعاف. فقد أسلم الفقيد الروح وهو فى سيارة انطلقت لإسعافه.

وانتشر الخبر المؤسف سريعًا. وفى ظهر اليوم التالى وصلت سيارة إسعاف تحمل الجثمان، وتمت مراسم تشييع الجنازة. وفؤاد محرم فى غاية التأثر وخاصة عندما شاهد أسرة المتوفى وهم فى حالة انهيار من هذا المصاب المفاجئ، وهم يرددون أن «المرحوم» كان فى كامل صحته ولم يشتك أبدًا من مرض فى القلب.

ومرت بضعة أسابيع على هذا اليوم الحزين. وفى أحد الأيام اتصلت الفتاة «دينا جمال فارس» بصديق والدها فؤاد محرم، وأخبرته أنها تريد أن تراه لأمر هام. فرحب الرجل وحدد لها مكان وزمان اللقاء.

وعندما تقابلا، قالت الفتاة وهى ترتدى ملابس الحداد السوداء، والدموع فى عينيها، والحيرة بادية عليها وفاجأت صديق والدها بقولها:

- عمى فؤاد.. اصدقنى القول كيف مات أبى؟

وارتبك الرجل من سؤال الفتاة الذى يفتح عليه ذكرى مؤلمة يود أن يتناساها، وقال بتلعثم:

- مات بالسكتة القلبية المفاجئة، كما قلت لك من قبل.

- أنا لا أقصد السبب الطبى، ولكنى أقصد ملابسات هذا الموت. أين كان؟ وماذا كان يفعل؟ وهل انفعل على شخص ما وسبب له هذا الانفعال السكتة القلبية؟ أم ماذا؟ أريد أن أعرف كل شىء.

- لماذا تسألين كل هذه الأسئلة يا ابنتى، والأمر كله انتهى، وليس لأسئلتك وإجاباتها أى معنى؟

- لا يا عمى فؤاد، لأسئلتى معنى، والإجابة عليها ستتيح لى فهم أمور لا أفهمها.

- أنا لا أفهمك يا ابنتى، أى أمور تقصدين هذه التى لا تفهمينها؟

وقررت الفتاة أن تكشف عما يدور فى داخلها، وتبوح بالسر الذى يثقل كاهلها فقالت فى أسى:

- عمى فؤاد، أنا فى عذاب شديد لا يدرى به أحد سوى الله تعالى، فكل يوم أشاهد

فى المَنَام أبى وَهُوَ سَاجِدٌ عَلَى الأرْض يخْرُجُ مِنْهَا نَارٌ مُشْتَعِلَةٌ تُحِيطُ به وتحْرقُهُ وَهُو يصْرُخُ مُسْتَنْجِداً بى أنْ أنقذهُ منْ هَذه النِّيران، وكُلَّمَا حَاولْتُ أنْ أُطفئَ هذه النِّيران لا أسْتَطيعُ، وأقُومُ منْ نوْمى فى فزعٍ هائلٍ لِمَا رأيْتُهُ فى مَنَامى، ويتكرَّرُ هذا الحلْمُ مَعى تقْريبًا كُلَّ يوْمٍ لدرَجَةِ أنَّنى كرِهْتُ أنْ أنَامَ حتَّى لا أرَى هذَا الحلْم، قلْ لى يا عمّى.. ما سببُ هَذهِ الأحْلام المُفْزِعَة؟ وأنَا واثقَةٌ أنَّ الإجَابَةَ عَنْ هَذَا التَّسَاؤُلِ عندك أنْت.

واهْتَزَّ فُؤادٌ بشدَّةٍ منْ كَلِمَاتِ الفَتَاةِ المعذَّبَة، وفَرَّتْ دَمْعَةٌ منْ عيْنيْه لمْ يسْتَطعْ ضبْطَها

وقال:

- اسمعى يا دُنيا يا ابنتى، إذا قلتُ لك حقيقة ما حدث، فهلْ تقطعين على نفسك وعدًا بأنْ يكون سرًا بيننا لا تبوحين به لأحد مهما كان؟

- نعمْ أعدك يا عمّى فؤاد.

- إذنْ فتماسكى واضبطى أعصابك وأنا أقصُّ عليك ما حدث.

واعتدل فؤادٌ فى جلسته، وبدأ يقصُّ موقفًا يصعُبُ عليه سردُهُ وقال:

- عندما قابلتُ والدك - رحمهُ اللهُ - فى الإسكندريّة بطريق الصُّدفة، ألحَّ علىَّ لقضاء سهرة فى أحد «كازينوهات» الليل التى توجدُ على كورنيش مدينة الإسكندريّة بالقُرب منْ ميدان «محطّة الرّمل». فوافقتُ على مضض، ودخلنا معًا «الكازينو» الذى اختارهُ والدك، وجلسْنا فى ركْن خاصٍّ نتناولُ بعْض المأكولات والمشْروبات ونُشاهدُ عُروضًا متتالية من الموسيقى والرّقص والغناء مع إضاءة خافتة ومتلوّنة مما تضفى على المكان سحرًا خاصًا. ومع توالى فقرات البرْنامج الفنّى بالكازينو أعلنَ مقدّمُ البرنامج أنّ الفقرة التّالية هى للمغنيّة الجميلة ذات الأصْل اليونانىّ «ماريا»، فهلّل الزبائنُ وصفّقوا كثيرًا، وظهرت المُغنيّةُ الجميلةُ وهى فى أبْهى مكْياجها وملابسها مما يجعلها جميلة مثل جميلات الإغريق، الفاتنة «هيلين» التى تسبّبَ جمالُها فى قيام «حرْب طروادة» التى دامتْ أكْثرَ منْ عشْر سنوات.

وبدأتْ «ماريا» تُغنّى غناءً مُثيراً، وتتراقصُ على إيقاعِ المُوسيقى بشكلٍ لافتٍ. وحاولتْ أنْ أبعدَ عيُونى عنْ هذهِ الفتْنَةِ الطّاغيَةِ، أمّا والدُكِ فقدْ بُهرَ بها بشكلٍ غيْرِ عادىٍّ، وأخذَ يُصفّقُ لها ويَصيحُ بكلِماتِ الإعجابِ والغزَلِ، وصِحْتُ فيهِ قائلاً:

- يا رَجُلُ عَيبٌ ما تَفْعَلُهُ، إنّكَ لَسْتَ شابّا مُراهِقاً، فإنّ لكَ ابْنَةً فى سنِّ الزّواجِ.

فردَ علىَ وهُو فى هيامه مع غناء ورقص هذه المُغنيَة:

- يا عزيزى فؤادْ .. إنْ عشقنا فعذرنا أنَّ فى وجهنا نظرْ.

واستمرَ والدك فى صياحه واعجابه وغزله لهذه الراقصة الفاتنة حتَّى انتهتْ منْ وصلتها، فأصرَ كلُ الزبائن على مزيدٍ منْ غناء ورقص «ماريا» فأرضتهُمْ بمزيدٍ من الغناء والرقص لمدَّة دقائق ثمَّ خرجتْ منْ أمام الزبائن واختفتْ فى الداخل.

فإذا بوالدك ينادى على «المتردُوتيل» ويخبرهُ أنَّهُ يريدُ المُغنيَة «ماريا» لتجلس معنا بعض الوقت فأخبرهُ «المترْ» بأنَّ ذلك سيكلفهُ ماديًا الكثير، فأفهمهُ أنَّ ذلك لا يهمُّ وهُو مُستعدٌ لما يطلبُهُ.

فابتسمَ «المترُ» وغابَ قليلا ثمَّ عادَ ليقولَ: دقائقُ وتحضرُ «ماريا».

وبالفعلِ حضرتِ الجميلةُ (ماريا) واقتربتْ منَ الركنِ الخاصِّ الذى نجلسُ فيه وهى تبتسمُ، وأعترفُ أنَّ الفتاةَ عندما دنتْ أكثرَ وأكثرَ ظهرتْ كملكةِ جمالٍ، وبدتْ فتنتُها طاغيةً، وترتدى منَ الملابسِ ما يُظهرُ أنوثتها غيرَ المسبوقة، وعطرُها النفاذُ يأخذُ بالألباب.

وهُنا وقفَ والدُك مشدُودًا ومسحُورًا أمامَ هذا الجمالِ الطاغى، وكأنما سُلبتْ إرادتهُ وذهبَ عقلُهُ، وأصبحَ يتصرَّفُ بشكلٍ آلىٍّ وكأنَّما يُحركُهُ «ريموت كنترول» وتقدَّمَ نحوها وأخذَ يدَها اليُمنى وقبَّلَها، فضحكتِ الفتاةُ بإغراءٍ كبيرٍ، فتمتمَ والدُك قائلا: إنَّ مثل هذا

الجمال لا يكفيه أنْ تُقبّل يدهُ، بلْ ينبغى تقبيلُ قدمه، وإذا به يسجُدُ أمامَ الفتاة ليُقبّلَ قدميها، وضحكتُ الفاتنةُ ضحكةً عاليةً فى دلالٍ لافتٍ، واستنكرتُ هذا العملَ الخارجَ عنِ اللياقة وعن الدين، وصحتُ فيه: لا .. لا يا جمال هذا كثيرٌ جدا وأنتَ قدْ خرجتَ عنْ شعورك وخرجتَ عن اللياقة.

ولمْ يستجبْ والدُك لندائى، بل استمرَّ فى سجودِه لهذه الشيطانة الفاتنة، وهى مُستمرّةٌ فى ضحكها المُغرى، وطالَ الموقفُ، وأرادتْ هى أنْ تبتعدَ عنهُ فلمْ تستطعْ لأنَّهُ

مُمسكٌ بقدميها ويسندُ رأسهُ عليهما. وقمتُ وأمسكتُ به وهززتهُ بشدةٍ كى ينهى هذا المشهدَ السخيف ولكنْ لمْ يستجبْ لى بأىّ حركةٍ أوْ أىّ كلمةٍ، وكأنما قدْ راح فى نومٍ عميقٍ. وعندما حملهُ «المتردوتيل» بمساعدتى ووضعناهُ على الأرض، كان أبوك فى غيبوبةٍ تامةٍ، وأسرعَ «المتر» واستدعى طبيبًا يعرفهُ منْ وسطِ الزبائنِ الذى أسرعَ بالحضورِ وقامَ بجسِّ نبضهِ وتدليكِ قلبهِ ومحاولاتِ إسعافهِ. وبعدَ قليلٍ أعلنَ هذا الطبيبُ وقالَ فى اقتضابٍ:

البقيةَ فى حياتكمْ لقدْ مات.. وصرختْ «ماريا» صرخاتٍ هستيريةً ملؤها الفزعُ والخوفُ، فلقدْ مات الرجلُ تحتَ أقدامها، وأصيبتْ بلوثةٍ عقليةٍ أدتْ إلى إصابتها بشللٍ نصفىٍ بدلَ جمالها إلى قبحٍ شديدٍ. أما أنا فقدْ أصابتْنى المفاجأةُ بحزنٍ شديدٍ وشللٍ فى التفكيرِ، قمتُ بعدها باستدعاءِ عربةِ إسعافٍ للذهابِ إلى أقربِ مستشفى لعلَ الأمورَ يكونُ بها جديدٌ، ولكنْ فى المستشفى أعلنوا أنَ الحالةَ منتهيةٌ والوفاةُ حدثتْ منذْ حوالىْ ساعةٍ والتشخيصُ سكتةٌ قلبيةٌ. فاتصلتُ بكمْ هاتفيًا، وأنت تعرفينَ بقيةَ الحكايةِ.

وبكتْ «دنيا» بكاءً حارًا، وعرفتْ سببَ هذا الحلمِ المزعجِ الذى تشاهدهُ يوميًا وقالتْ وهى فى بكائها والدموعُ تنهمرُ منها:

- والآنَ بعدَ ما عرفتُ الحقيقةَ ماذا يجبُ علىَ أنْ أفعلَ لأخففَ عنهُ ماهُ و فيه.

- تفعلينَ ما أوضحهُ لنا رسولنا الكريمُ صلى اللهُ عليه وسلمَ فى حديثه الشريف: «ينقطعُ عملُ ابنِ آدمَ بعدَ موتهِ إلا منْ ثلاثٍ: علمٍ يُنتفعُ به، أو صدقةٍ جاريةٍ، أوْ ولدٍ صالحٍ يدعُو لهُ».

أكثرى الدعاءَ والاستغفارَ لهُ، تصدقى على الفقراءِ باسمه، أقدمى على حجِ بيتِ اللهِ الحرامِ باسمه، افعلى الخيراتِ باسمهِ يُخففُ اللهُ عنهُ العذابَ إنْ شاءَ عزَ وجلَ.

وشكرتِ الفتاةُ صديقَ أبيها على هذهِ الكلماتِ وتعريفها بالحقيقةِ التى كانتْ غائبةً عنها، وقبلَ أنْ تتركهُ وتذهبَ وعدتهُ بأنها ستقومُ بكلِ عملٍ صالحٍ وتهديه لأبيها، ولنْ تهدأَ حتى تراهُ فى المنامِ وهوَ فى حالةٍ طيبةٍ.

وسار فؤادُ مُحرِم فى الطريق وحيداً وهو يفكرُ فيما حدثَ لأصدقائه، وتيقَّنَ أنَّ كلَّ زينةٍ يتزيَّنُ بها الإنسانُ إلى زوال، القوةُ زائلةٌ والمالُ زائلٌ والشهواتُ زائلةٌ، والباقى هو الإيمانُ والعملُ الصالحُ، وردَّد قول الله تعالى:

﴿زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المُسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدُّنيا واللهُ عندهُ حُسنُ المآبِ (١٤)﴾ (آل عمران).

ولمْ يشعرْ فؤادُ إلا بالدُّموعِ تتساقطُ منْ عينيه على أصدقاءِ لمْ يعملُوا لآخرتهمْ، ولمْ يعبدُوا اللهَ عزَّ وجلَّ، بلْ عبدُوا الدُّنيا ونعيمَها الزائلَ، فأخذَ يدعُو ربَّه قائلاً:

﴿... ربَّنا لا تُؤاخذْنا إن نَّسينا أوْ أخطأْنا ربَّنا ولا تحملْ علينا إصْراً كما حملْتهُ على الَّذين من قبْلنا ربَّنا ولا تُحمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به واعفُ عنَّا واغفرْ لنا وارحمْنا أنت مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرين (٢٨٦)﴾ (البقرة).

صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ.

اللَّهُمَّ قوِّ إيمانى..